The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 1, No. 2, November 2022
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

الاستخلاف في الإسلام: رؤية معرفية
دراسة تحليلية لبنية الدين الإسلامي

Asst. Prof. Dr. Abdulnaser Sultan Mohsen Sallam
Yalova University
Faculty of Islamic Sciences, Philosophy & Religion Study Department.
ORCID: 0000-0003-2061-2082
abdulnaser@yalova.edu.tr

الملخص

لكل دين رؤية معرفية ينطلق منها، هي أساس لبنية هذا الدين: بمكوناته المتمثلة في العقيدة والشريعة والعبادات والقيم. وهذه الرؤية هي أساس الإجابة على الأسئلة الثلاثة الكونية التي احتار فيها الفلاسفة ونشأت منها الفلسفات والمذاهب الفكرية المتعددة. تهدف هذه الدراسة إلى تحديد مشروع فكري جديد من خلال معرفة الرؤية المعرفية للإسلام واعتبارها إطار وأساس منهجي يمثل ضوابط وقواعد للمكوّنات الأربعة الأساسية للإسلام كدين. وتعتمد هذه الدراسة على المنهج التحليلي الذي يوضح أن مفهوم الاستخلاف يشكل الرؤية المعرفية للإسلام التي يمكن لها أن تعكس نظرة الإسلام للوجود وللإنسان والحياة، وعليه يمكن اعتبار هذا المفهوم بمثابة مشروع فكري تتحد من خلاله أبعاد هذا الدين النظرية والعملية، وذلك من خلال بيان المقصد العام للدين كرؤية معرفية، ثم تحديد مفهوم الاستخلاف كرؤية معرفية للإسلام، وفي الأخير الكشف عن دور هذا المفهوم في الفكر الإسلامي من خلال مكوناته الأربعة.

الكلمات المفتاحية: الدين، الإسلام، الرؤية المعرفية، الاستخلاف

المقدمة

إن لكل دين قضية جوهرية تمثل رؤية معرفية يقوم عليها المقصد العام لهذا الدين وبنيته وتربط بين مكوناته المتمثلة في العقيدة والشريعة والعبادات والقيم فتجعل منه منظومة روحية معرفية متكاملة متسقة، تمثل إطاراً منهجياً لهذه المكونات تتحدد من خلالها أبعادُه النظرية والعملية. [1]

(1) ينظر: محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، (القاهرة: دار قباء، 2001 م) ص 35.

هذه الرؤية المعرفية هي أساس الإجابة على الأسئلة الثلاثة الكونية التي احتار فيها الفلاسفة ونشأت منها الفلسفات والمذاهب الفكرية المتعددة ألا وهي سؤال الماهية: ما أصل الكون وطبيعة الإنسان؟ وسؤال السببية: لماذا وُجِد الإنسان في هذه الحياة؟ سؤال المصير: ماذا بعد الحياة؟ ويمكن الكشف عن هذه الرؤية من خلال القضية المحورية أو المقصد العام لكل دين عبر سياقه التاريخي من خلال تحليل مسائله العقدية بشكل خاص، وذلك مثل قضية وحدة الوجود في الهندوسية،[1] وإنكار الذات في البوذية، والشعب المختار في اليهودية، والخلاص من الخطيئة في المسيحية، فهذه القضايا تمثل الرؤية المعرفية لكل ديانة والتي يمكن من خلالها فهم الأبعاد النظرية والعملية لكل دين منها.[2]

والإسلام كدين يقوم على رؤية معرفية واضحة هو قضية الاستخلاف، الذي هو بعبارة بسيطة هو المقصد الأساسي للإسلام والذي منه يمكن معرفة نظرة الإسلام للوجود وللإنسان والحياة.

مفهوم الاستخلاف كرؤية معرفية

اختلف بعض العلماء في إطلاق وصف خليفة الله على الإنسان بين المجيزين والمانعين، حيث استند المانعون وأبرزهم ابن تيمية على أن دلالة اللفظ تستلزم غياب المستخلِف وقت استخلاف الخليفة أو أنها محصورة في حاجة المستخلِف إلى الاستخلاف، قال ابن تيمية: "والخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف، وسمي خليفة لأنه خلف عن الغزو، وهو قائم خلفه، وكل هذه المعاني منتفية في حق الله تعالى، وهو منزه عنها، فإنه حي قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب... ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه، ولا يقوم مقامه، لأنه سمي له، ولا كفء له، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به[3]"، أما المجيزون الذين أجازوا وصف خليفة الله على الإنسان فقد استندوا إلى أن من دلالة الاستخلاف تشريف المستخلَف كما ذكر الأصفهاني: "والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف[4]"، وكان أبرز من ذهب إلى جواز وصف (خليفة الله) المفسرون في تفسير كلمة خليفة للآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30) كابن جرير الطبري والبغوي والرازي والقرطبي وابن كثير مؤكداً البعض منهم أن المراد ليس فقط آدم عليه السلام

(1) مثال قضية وحدة الوجود في الهندوسية: فقضيتها الأساسية تقوم على نبذ الحياة الدنيا لتخليص الإله من قبضة المادة أو الحس حيث تجلى في الوجود المادي، وعليها فهمت كثير من العقائد أكانت تعدد الألوهية أو عقيدة التناسخ أو الفناء أو التميز الطبقي الاجتماعي من خلال قضية وحدة الوجود.

(2) شريف الدين بن دوبه، فلسفة الدين مشروع رؤية توحيدية، (الجزائر: جامعة وهران، مجلة الراصد العلمي، العدد الثالث، يناير 2016 م) ص 28.

(3) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوي، جمع وترتيب عبد الرحمن قاسم، (الرباط، المغرب: مكتبة المعارف، د. ت)، ج35 ص45. وقد ذهب ابن تيمية أن تفسير كلمة (خليفة) في الآية: {إني جاعل في الأرض خليفة}، "خلق كان في الأرض قبل ذلك" منهاج السنة، تحقيق محمد رشاد السالم، (بيروت، لبنان: مكتبة خياط، د. ت) ج1 ص 510.

(4) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني، (مكة مكرمة: دار الباز، د.ت)

ولكن ذريته أيضاً، قال ابن كثير: "والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة:30) فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك[1]"، وعلل ذلك الشنقيطي بقوله: "أن قوله (خليفة) مفرد أُريد به الجمع، أي خلائف[2]".

إن وصف (خليفة الله) لا تعني مطلقاً خليفة عن الله، أو خليفة مع الله، أو خليفة لله، أو نائباً عن الله قائماً مقامه، فلا يمكن لمخلوق أن ينوب عن خالقه، ولا يشترط إذا أطلق على الإنسان هذا الوصف أن يكون الإنسان سمياً لله وكفواً، أو أنه أعلى شأناً من وظيفة النبي أو الرسول، إذا تم إدراك الدلالة القرآنية لمفهوم الاستخلاف كوظيفة كونية للإنسان على الأرض كتفويض من المالك للتصرف في ملكه. ولا يعني هذا التفويض أن الإنسان أصبح "مطلق التصرف في هذا الكون يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يحكم، إنما هو مخلوق مستخلف من خالق الكون وخالقه، موكل بأن يعمره ويتصرف فيه وفق أمر موكله وإرشاد مستخلفه[3]"، والله تعالى "يوكل من يشاء من خلقه فيما شاء من أمره، كما وكل ملائكته في بعض شؤون خلقه، وكما أناب الإنسان في تنمية المال وإنفاقه، على ما يرضي الله سبحانه مالك المال وصاحبه الحقيقي[4]".

ولعلّ حمل هذه الوظيفة أي الاستخلاف هي الأمانة التي تميز بحملها الإنسان عن باقي المخلوقات، فأصبح مسؤولاً عن عمله، محاسَباً عليه ثواباً أو عقاباً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72) وصار خليفة الله، يقول ابن عاشور في تفسيره لكلمة الأمانة في هذه الآية: "وقيل الخلافة، أي خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة[5]".

ولهذه الوظيفة أي الاستخلاف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ... ﴾ (البقرة:34) ودلالة ظاهر كلمة السجود بما تحمله من معنى غيبي –لا يمكن معرفة هيئته من قبل طبيعة الملائكة– توحي إيحاء قوياً بما خلع الله على الإنسان من وظيفة ربانية تتعلق بسيادة الإنسان على الأرض يُقوم بها نيابةً باسم الله (الرحمن الرحيم) ويحققها بمشيئته سبحانه، وبما أودعه من صفات أو قوى لا يمتلكها غيره من المخلوقات كالتعقل والإرادة والقدرة وغيرها والتي هي صورة من صفات الله تظهر في الإنسان،[6] والتي

(1) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969)، ج1 ص69.

(2) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (المؤسسة السعودية، ط2، 1400 هـ 1979 م)، ج1 ص68.

(3) القرضاوي، يوسف: https://www.al-qaradawi.net/node/4002

(4) السابق

(5) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: دار التونسية للنشر 1984م) ج22 ص 129.

(6) Seyyed Hossein Nasr, *Ideals and Realities*, (London: George Allen & Unwin publishers Lid 1985), p 3.

يمكن فهم إضافة الروح المخلوقة لله كتشريف لحملها مثل هذه الصفات[1] في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29). وعليه أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد خلقه وتسويته وتعليمه وتفوقه على الملائكة ومن ثم تكليفه بهذه الوظيفة الربانية الحاملة لصفات تميز بها الإنسان عن غيره، وبهذا يتفق سياق القصة مع الهدف من كون آدم (خليفة) ولا يتناسب كونه مجرد مخلوق يخلف من كان قبله من سكان الأرض كما نقل بعض التفاسير من روايات.

والذي يؤكد خلافةَ الله للإنسان في الأرض: أن الله خلق الإنسان لهذه الأرض في صورة دقيقة متلائمة مع المحيط الذي يعيش فيه ويُعمّره، وأعطاه من الطاقات والمواهب وهيئ له من الأسباب والأدوات ما يمكنه من القيام بحق هذه الخلافة يظهر هذا في تناسب المقاييس الحيوية في الأرض مع الإنسان، وتسخير كل ما دونه له،[2] يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة:29) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:20).

وعليه فإنه يمكن فهم معنى الخليفة في ظل هذه المؤشرات التي ترجح كون أن آدم وذريته هم خلفاء الله في الأرض، والهدف من ذلك تحديد مكانة الإنسان في نظر الإسلام، وتعيين درجته في سلم الكائنات، ومن ثم نظرته للوجود والكون والنفس.

لكن يبقى هناك دلالتان لمفهوم الاستخلاف في الإسلام، وهما:

- دلالة وجودية: والاستخلاف من هذه الناحية هو تفعيل مشيئة الله في الأرض من خلال صفاته، من الإعمار والصنع والإبداع وتطبيق القيم السامية، وذلك من خلال ما وهب الله للإنسان من روح وصفها الله عز وجل بأمره سبحانه، حيث إن "الطبيعة الأساسية للروح هي التوجيه والتدبير، لأنها تصدر عن الطاقة الإلهية المدبرة[3]"، ظهرت في الإنسان في قدرته على تشكيل الوجود من حوله، وظيفة الخلافة هنا وظيفة كونية، وهي خلافة ربانية (معنى الرب يرتبط بالسيادة)، ويلتمس منها آثار الله وصفات الكمال بواسطة خلقه في صور الرحمة والعدل والحق والإبداع والحكمة والبيان وغير ذلك من القيم لسعادة البشرية جمعاء، وهي تتعلق بالإنسان الخليفة سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وعليه أطلق لفظ الخلفاء والخلائف على المؤمنين والكفار في القرآن يقول الله تعالى: ﴿.. وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ... ﴾ (النمل:62) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ (فاطر:39) ولا يمكن قصر المعنى فقط على أقوام تخلف بعضها البعض، كما أن معناه كوظيفة كونية تتناسب مع العبرة التي سيقت من أجلها الآية،

(1) يذكر بن القيم أن الروح هي مكان إجراء هذه الصفات، أي التي تقوم بوظائف الكائن النفسية أو المادية من خلال الجسد، ينظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية، الروح، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم أبو العباس، (القاهرة: مكتبة القرآن، د.ت) ص176.

(2) السيد أحمد فرج، مقال في الإنسان والتوحيد، (القاهرة: دار الوفاء، ط 1، 1414 هـ، 1993 م) ص 100.

(3) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2010 م) ص 172.

والله أعلم، يؤكد ذلك صاحب المنار في تفسيره: "أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض يقيم سنته ويظهر عجائب صنعه[1]"، ويقول عن ذلك صاحب الظلال: "لقد خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها... على يد خليفة الله في أرضه... ها نحن نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة... لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة بين إبليس، وخليفة الله في الأرض[2]".

- دلالة شرعية: والاستخلاف من هذه الناحية هي تفعيل إرادة الله في الأرض، وتنفيذ ما أمر به. فوظيفة الخلافة هنا خلافة إلهية (معنى الإله يرتبط بالعبادة بمفهومها العام والخاص) تظهر كونها تفويض في الحكم أو الأمر والنهي، حيث إن المسلم يفهم الاستخلاف أنه تكليف يجب أن يلتزم بما أمر به المفوّض (الله)، لذا خُلع هذا الوصف على أعلى منصب في الأمة أي الحاكم. وخلفاء الله في هذه الدلالة هم المؤمنون الصادقون المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:55)، يقول القرطبي: "والمعنى بالخليفة في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، آدم عليه السلام وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره[3]"، وقد أجاز ابن القيم هذه الناحية من صفة خليفة الله، قائلاً: "على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به[4]".

مقتضيات الاستخلاف كرؤية معرفية

إن التصور السائد في الوعي الجمعي للمسلمين أن التوحيد أو العبادة أو الإيمان هو القضية الجوهرية أو المقصد العام الذي يحكم الرؤية المعرفية للإسلام، ويمكن القول إن هذه المفاهيم ترتبط ارتباط وثيق بالاستخلاف، لكن لا يمكن القول أن أحدها هو القضية الجوهرية حيث إن التوحيد هو العقد الشرعي للاستخلاف ومنهج الخليفة، والعبادة –في مفهومها التعبديّ– لا يمكن أن تكون هي القضية الجوهرية للدين حيث إن العبادة كانت دعوى الملائكة لأحقيتها في الخلافة ﴿... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... ﴾ (البقرة:30)، أما الإيمان فهو من مقتضيات الاستخلاف الشرعي مع اقترانه بالعمل الصالح.

(1) محمد رشيد رضا، المنار، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003 م) ج2 ص258-260.
(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، (دار الشروق، 1980 م) ج1 ص58.
(3) القرطبي محمد بن أحمد، أحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة: دار الشعب، 1327 هـ) المجلد الأول ج 1 ص263
(4) ابن القيم شمس الدين الجوزية، مدارج السالكين، (القاهرة: السنة المحمدية، د. ت) ج 2 ص126- 127.

إن للاستخلاف من خلال الدلالة الشرعية مقتضيات مطالب بها المسلم، يمكن أخذها من خلال الآية آنفة الذكر: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:55)

فاستحقاق الاستخلاف في الإسلام –في دلالته الشرعية– قائم على استيفاء شرط الإيمان واستيفاء شرط العمل الصالح.

مقتضى الإيمان في الاستخلاف

إن الإيمان له دلالتان لهما أبعادهما المعرفية في مفهوم الاستخلاف: دلالة عقدية، ودلالة سلوكية: ويمكن شرحهما بشكل مختصر؛ دلالة عقدية تتعلق بصحة الإيمان لذا تتوقف على قبول القلب بالتصديق، ودلالة سلوكية تتعلق بكمال الإيمان لذا تتوقف على إقبال الجوارح بالطاعة.[1]

إن المقصد من الدلالة العقدية للإيمان كمقتضى للاستخلاف هو اتباع أوامر المستخلِف (الإله) على ملكه، حيث لا يمكن للخليفة أن يتصرف في ملك من استخلفه على هواه، فالمستخلِف هو أدرى بملكه وبخلقه من غيره، وهذا كعقد بين المستخلف والمستخلف. ولهذا تم تعريف الدلالة الشرعية للاستخلاف أنها تفعيل إرادة الله عز وجل في الأرض وتنفيذ أوامره، أي الالتزام بالمنهج الإلهي في الحياة في السلوك والأخلاق والأحكام، وذلك لتحقيق توحيد الألوهية، لذا يؤكد الله في نهاية الآية هذا الشرطَ العقدي في قوله تعالى: ﴿... يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي ...﴾. وهذه الأوامر لا تقيد الخليفة المسلم، بل هي توجيه له وإرشادات لمصلحة البشرية وسعادتها، وللخليفة مساحة كبيرة للاجتهاد فيما فوضه المستخلف، أي أن هناك مساحة لحرية التفكير والتشريع وفقاً لثوابت عامة حددتها الشريعة.

إن المقصد من الدلالة السلوكية كمقتضى للاستخلاف هو أن كل فعل يقوم به الخليفة فهو يفعله باسم المستخلف، وكأنه يمثل المستخلف في كل فعل يقوم به، وهذا ما يمكن فهمه من خلال البسملة، فكل فعل يقوم به المسلم يستهله باسم الله، وذلك دلالة على كونه خليفتَه في الأرض، فالبسملة هي عنوان العقد الذي بين المستخلف والمستخلف.

مقتضى العمل الصالح في الاستخلاف:

إن العمل في الإسلام بناءً على كثير من الأدلة هو المقوم الأساسي المادي العملي المحسوس للرؤية المعرفية في الإسلام أي الاستخلاف، أي أن العمل بعبارة أخرى هو المادة الأساسية للرؤية المعرفية في الإسلام، حيث إن الاختبار الإلهي للخليفة في الأرض هو العمل وبشكل أدق الإحسان في العمل. يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا

(1) يمكن من فهم هاتين الدلالتين تحرير محل النزاع بين خلاف العلماء في تحديد الإيمان، ويمكن أيضاً الرد على القائلين بالاكتفاء بالإيمان القلبي دون الأعمال من ناحية، أو المكفرين بالمعاصي من ناحية أخرى.

عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الكهف:7)، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (تبارك:2)، فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن هذا الوجود كله قائم على الإحسان في عمل الإنسان. ويؤكد القرآن أن مقتضى الاستخلاف هو عمارة الإنسان في الأرض، وذلك لخلق الحياة عليها، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:61).

مضامين الاستخلاف كرؤية معرفية

إن للاستخلاف مضامين تعكس الرؤية المعرفية للكون والحياة والنفس عند المسلم، من أهم هذه المضامين:

التفاعل مع الحياة الدنيا

التفاعل مع الحياة الدنيا أي مواجهة الدنيا وليس الإعراض عنها وكراهية الدنيا والزهد فيها، فالله سخر للإنسان ما في السماوات والأرض وهذا التسخير يقتضي من الإنسان التعامل مع كل ما سخر له. بل يقتضي منه تنمية قدراته ومهاراته للتعاطي مع مقدرات ومقومات الأرض التي سخرها الله لنا. وبناء عليه فالدنيا والأرض ليستا لعنةً لذاتهما أو مذمومتين لذاتهما، ففي الحديث: {الدنيا حلوة خضرة والله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون[1]}.

الأمانة

الأمانة من مضامين الاستخلاف، فمجال الاستخلاف وهو الكون هو الأمانة التي استأمنها الله الإنسان، لتكون علاقة الإنسان بالكون علاقة أمين وليست علاقة مالك بمملوك، ومن هنا يمكن فهم الأمانة، التي حملها الإنسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72) كمضمون للاستخلاف تتمثل في حسن تعامل المسلم مع نفسه ومع كل من وما حوله على قدر استشعاره وإدراكه لمفهوم الاستخلاف، فنفسه أمانة وأهله أمانة ووظيفته أمانة ووقته أمانة.

ولأن المسلم تخلف عن دوره الذي أنيط به، فقد ضيعت الأمانة، فكما ورد في الحديث: {إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة؟} لذا تحول مفهوم الاستخلاف مفهوماً يسوده الغلبة والمصالح والفوضى.

إسناد ملكية المال لله

ويصبح المال في مفهوم الاستخلاف مالَ الله، الإنسان مستخلف فيه ولا أكثر، فلا أحد يملك مالاً، وإنما المال وديعة لا تدوم، يقول الله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور:33)، ويقول: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد:7).

(1) رواه مسلم، 2742.

الحرية

من مضامين الاستخلاف قيمة الحرية، فالإنسان نال منصب الخلافة لما تميز به عن غيره لقدرته في اختيار الفعل بين القيام به أو تركه. وبلا شك إذا انعدمت الحرية انعدم معها التكليف والخلافة، وهذا يعني أن الإنسان غير خاضع لحتمية تاريخية، ولا يمشي وفق سنة جبرية.

المسؤولية

من مضامين الاستخلاف المسؤولية، فوظيفة الإنسان كخليفة تعني أنه مسؤول أمام الله، وكما ورد في الحديث {كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[1]}، والشعور بالمسؤولية يدفع الخليفة للإحسان في كل شيء، وهذا هو تعريف الإحسان أن {تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك[2]} فالإحسان نابع من المسؤولية سواء من مقام الشهود أو من مقام المراقبة.

وقد حصر المسلم الشعور بالمسؤولية في نطاق حياته الضيقة، ولم يستشعرها كخليفة الله في الأرض من خلال تنمية كفاءته العقلية والمهنية والتربوية لتؤهله للقيام بدوره في المهام والوظائف العملية المناط عليه.

المساواة الإنسانية

من مضامين الاستخلاف المساواة الإنسانية، أي أنه لا وجود لأي تمييز في الإنسانية، مثل التمييز العرقي أو السلالي أو الطائفي في ظل مفهوم الخليفة الإنسان، هذا النوع من التمييز الذي يفترض أن وجود إنسان مختلف إنسان أخر من حيث الطبيعة، وهذا الخطأ الذي وقع فيه إبليس عندما ظن استحقاق الخلافة بناء على طبيعة المخلوق، حيث ذكر القرآن على لسانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف:12). إن اختلاف درجات الناس ضمن منظومة الاستخلاف البشري يقاس بنجاح العمل وليس بدرجة العمل، أي أن مناط تقييم الإنسان وتميزه هو نجاح عمله وإبداعه فيه، يقول الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ... ﴾ (الأنعام:165).

الفعل الحضري والحيوية الحضرية

فالمسلم يدفعه الشعور بالاستخلاف إلى الفعل المساهم في بناء حضارة الأمة، فالله منح الإنسان بجانب ما سخر له في هذه الكون، مؤهلات تحمله على تصور دوره في هذا العالم كقوة فاعلة مفكرة مريدة قادرة على كل المهمات التي

(1) السابق، 1820.

(2) السابق، 9.

(3) See: Al-Attas Syed Muhammad Naquib, The Nature Of Man And The Psychology Of The Human Soul, (Kuala Lumpure, International Institute of Islamic Thought and Civilization, 1990) p. 87.

تساهم في الإبداع الحضاري على الأرض. وهكذا فالإيمان من هذه الناحية يحول الإنسانَ إلى طاقة فعّالة لا تهدأ،[1] وهذا ما يمكن فهمه من وصف الله عز وجل لعباد الرحمن بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ (الفرقان:63) والمشي على الأرض كناية عن العمل في القرآن.

الاستخلاف وبنية الدين

إن الاستخلاف كقضية جوهرية في الإسلام يمثل الرؤية معرفية له،[2] ومن ثم يعتبر المقصد العام للدين –كما اتضح في هذه الدراسة–يجب أن يؤسس عليه مقومات هذا الدين من ناحية، ومن ثم يقوم عليه كأصل معرفي في علم الفقه وعلم العقيدة وعلم التزكية، أي أن الاستخلاف يمكن أن يكون هو إحياء للمشروع الإسلامي نحو تجديد الدين الذي سيقدم نظرة تكاملية للعلوم الشرعية والعلوم الإنسانية، فإنه يمكن من خلال هذا المفهوم إعادة بناء العلوم الإسلامية من خلال نظام معرفي إسلامي، كونه يمثل رؤية كونية يمكن منها فهم قضية الوجود والحياة والإنسان والعلاقة مع الله، وهكذا يمكن إعادة النظر إلى القواعد التي تقوم عليها هذه العلوم، وسيضبط المسائل ويحدد المصطلحات، ويوحد هذه العلوم ببضعها البعض وبينها وبين التصوف والفلسفة.

وعند مقارنة الاستخلاف في الإسلام كرؤية معرفية بغيره من الأديان الأخرى يتضح ما يميز هذا الدين عن غيره من توازن بين المثالية والواقعية وبين الروحانية والمادية، وأنه دين عملي –إن صح الوصف– يربط الدنيا بالآخرة، ودين عقلاني يربط الأسباب المادية بالمشيئة الإلهية، ودين روحاني يربط الآلات الحسية بالقوى الروحية.[3] حيث إن بقية الديانات اختزلت معالمها في مقابلة الدين بالدنيا أو ما سمته بجدلية المقدس والمدنس، فاعتبرت الدنيا شراً ولعنة وسقوطاً ودنساً أو وهماً وشؤماً، وحطّت من قدر المخلوق، واعتبرت الإنسان شراً في أصل طبيعته أو متحوّلا من شر، واعتبرت الدين شريعة تحريمية أو هروباً من الدنيا أو فِراراً من التاريخ والمكان.

وهذه الدراسة هي مدخل مختصر يتيح للباحثين في العلوم الإسلامية البحث في هذه المفهوم كمشروع بحثي في القضايا العلمية التي يناقشونها، وتحاول هذه الدراسة أن تلقي بعض الضوء على بعض خصائص هذه الرؤية المعرفية في بعض العلوم الشرعية. فعلى سبيل المثال:

---

(1) Al-Faruqi Ismail Ragi, Al Tawhid : Its Implication for Thought and Life, (USA, The International Institute of Islamic Thought, Library of Congress Catalogiging-in-Publication Data, 1992) p.13.

(2) ينظر: محمد خليفة حسن، تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، (القاهرة: دار الثقافة العربية، 2002 م) ص 282– 284.

علم الفقه

إن المقصد الكلي للشريعة الإسلامية هو مراعاة مصالح العباد في الدارين، أو بعبارة أخرى أن مقصد الشريعة هو إصلاح الأرض وإعمارها، وهذا يعني أن هذا المقصد يتأسس على هذه الرؤية المعرفية أو المقصد العام للدين وهو الاستخلاف الذي أحد مقتضياته هو العمل ومعياره الإحسان.

وهكذا فإن الأحكام الفقهية يجب أن تؤطر أيضاً من خلال المقصد العام للدين وهو العمل من هذا المنظور الكوني.

إن اعتبار العمل في الإسلام كقيمة دينية منطلقها الاستخلاف، هو رفض لمبدأ العلمانية في فصل الدنيا عن الدين، أو فصل بين النظم الإنسانية والقيم الدينية.

علم العقيدة

وكما أن للشريعة مقصد كلي فللعقيدة مقصد كلي يرتبط بالمقصد العام للدين وهو المسؤولية، فالاعتقاد بالتوحيد والصفات مقصده العام هو المسؤولية (التي تنطوي تحتها قيم كثيرة مثل الطاعة والمراقبة والحرية والحاكمية) وهكذا الاعتقاد باليوم الآخر والقضاء والقدر.

إن الإخلاص الذي هو مقوم عقيدة التوحيد هو اعتقاد بأن لا قيمة لأي عمل إلا أن يكون لله، لأن الله سبحانه هو المصدر الأساسي القيمي لكل ما في الوجود.

إن هذا الفهم لمقصد العقيدة المرتبط بالعمل قد يجدد النظرة إلى الوجود كعلاقة بين الله والإنسان من خلال مفهوم الاستخلاف الكوني، ومن ثم الفهم الدقيق لمفهوم المشيئة في الإسلام، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان:30).

إن الهدف من العقيدة هو العمل، فإن تصدر آيات التشريع بنداء المؤمنين وختمها بصفات الله، تأكيد لارتباط العقيدة بالعمل، وهذا يعني أن العقيدة الإسلامية عقيدة هدفها العمل، وليس التنظير في مسائل فيما وراء العقل.

فالإيمان العقدي الذي محله القلب، ينتقل إلى الإيمان العملي الذي محله الجوارح، وهذا هو الفرق بين دلالتي الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ (النساء:136).

علم التصوف

ارتبط علم التصوف بمفهوم الإحسان الذي يرتبط بالعبادة الخالصة {أن تعبد الله كأنك تراه[1]} ودلالة الإحسان تتعلق بإتقان العمل، وإن ربط إتقان العمل بالعبادة الخالصة يؤكد قيمة إتقان العمل ليصل إلى مرتبة العبادة الخالصة، والتي هي غاية الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56).

(1) رواه مسلم، 9.

إن التزكية هي من أهم أهداف علم التصوف والتزكية القصد منها إصلاح الداخل، وإصلاح الداخل معيار أساسي لإصلاح العمل، كما ورد في الحديث: {إنما الأعمال بالنيات[1]} وهكذا فالقصد العام من التزكية يرتبط بالقصد العام للدين.

وهكذا يتبين من ربط مقاصد العلوم الأساسية في الإسلام بالمقصد العام للدين أن العمل هو جماع وظيفة الدين ذاته.

الخاتمة

يتضح مما سبق أن مفهوم الاستخلاف –كما تم شرحه في هذه الدراسة– كرؤية معرفية هو نمط تفكير ونظام تشغيل يجعل المسلم يرى كل ما حوله بطريقة مختلفة من أبسط الأشياء إلى أعقد الأمور، بعبارة أخرى هو رؤية معرفية تتكون من خلاله شخصية المسلم وتصبغ بها حياته، إن هذا المفهوم غاب عن وعي المسلم لقرون عديدة، وافتقده في انتظام حياته كلها فرداً وأسرة وجماعة ودولة وأمة. وقد حُجّر ليصبح مقصورا على منصب الحاكم، وصار الحديث عنه مقروناً بالحكم أو الدولة، والاستخلاف من خلال هذه الدراسة أوسع بكثير من المفهوم الضيق الذي حصر في السياسة.

إن عدم فهم الاستخلاف في واقع المسلمين وأن لكل فرد في الإنسانية وظيفته التي تنطلق من هذا الاستخلاف، أدى إلى تخلف العالم الإسلامي عن ركب الحضارة، ولن يستطيع المسلمون اليوم إعادة الاستخلاف إلا بالإيمان الحقيقي الذي يحولهم إلى طاقة فعّالة وإلى عمل يرقى لدرجة الإحسان، حتى يتحقق لهم أسباب الاستخلاف من تنمية شاملة سواء أكانت علمية أو اقتصادية أو وسائل تكنولوجية متطورة وصناعات وعلى رأس ذلك تربية وتعليم قويين يكونان أساس بناء العقل المسلم.

ولا سبيل للمسلمين إلا بربط الإيمان بالعمل بمفهومه الواسع وهذا هو الجهاد المطلوب اليوم الجهاد المشتق من الجهد ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً.

إن الأمل اليوم من الباحثين المسلمين رؤية الاستخلاف كإطار معرفي ومنهجي يمكن من خلاله إعادة ترتيب معالم العلوم الشرعية من جديد، وإعادة قراءة تاريخ الدين، وإعادة ترتيب قضايا كبرى تناولتها الأمة عبر القرون الماضية وذلك من أجل مشروع التجديد التي تنتظره هذه الأمة، ويمكن اعتباره مشروعاً شمولياً للأزمة المنهجية التي تعانيها هذه الأمة.

(1) رواه مسلم، رقم 1907.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (د. ت) المفردات في غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني، مكة مكرمة: دار الباز.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (د. ت) مجموع الفتاوي، جمع وترتيب عبد الرحمن قاسم، مكتبة المعارف الرباط، المغرب.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (د. ت) منهاج السنة، تحقيق محمد رشاد السالم، مكتبة خياط، لبنان بيروت.
- السيد أحمد فرج (1414 هـ، 1993 م) مقال في الإنسان والتوحيد، القاهرة: دار الوفاء، ط 1.
- سيد قطب (1980 م) في ظلال القرآن، دار الشروق.
- شريف الدين بن دوبه (2016 م) فلسفة الدين مشروع رؤية توحيدية، الجزائر: جامعة وهران، مجلة الراصد العلمي، العدد الثالث.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي (1400 هـ 1979 م) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤسسة السعودية، ط2.
- ابن عاشور، محمد الطاهر (1984 م) التحرير والتنوير، تونس: دار التونسية للنشر.
- القرطبي، محمد بن أحمد (1327 هـ) أحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة: دار الشعب.
- القرضاوي، يوسف: https://www.al-qaradawi.net/node/4002
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية (د. ت) الروح، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم أبو العباس، القاهرة: مكتبة القرآن.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية (د. ت) مدارج السالكين، القاهرة: السنة المحمدية.
- محمد إقبال (2010 م) تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، (بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- محمد خليفة حسن (2002 م) تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، القاهرة: دار الثقافة العربية.س
- محمد رشيد رضا (2003 م) المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- محمد عثمان الخشت (2001 م) مدخل إلى فلسفة الدين، القاهرة: دار قباء.
- مسلم، صحيح مسلم، الموسوعة الحديثية الالكترونية.
- Al-Attas Syed Muhammad Naquib (1990) The Nature Of Man And The Psychology Of The Human Soul, (Kuala Lumpure, International Institute of Islamic Thought and Civilization, 1990)

Al- Faruqi Ismail Ragi (1992) Al Tawhid : Its Implication for Thought and Life, USA, The International Institute of Islamic Thought, Library of Congress Catalogiging-in-Publication Data.

Seyyed Hossein Nasr (1985) *Ideals and Realities*, London: George Allen & Unwin publishers Lid.